

طرافة الفارابي بين معاصريه في طرح إشكالية اللّغة العربيّة⁽¹⁾

جاك لنقاد

Jacques Langhade

جامعة بوردو III فرنسا

المعهد الفرنسي للدراسات العربية

- دمشق -

إن القرن الرابع الهجري / العاشر الميلاديّ هامّ فيما يتعلّق بتفكير العرب في القضايا المتّصلة بلغتهم. فمنذ نهاية القرن الثاني وضعت المؤلّفات الجامعة في النّحو واللّغة والعروض مع سيّويه والخليل. وتواصلت بعدهما حركة إنتاج المعرفة الكبيرة التي تدلّ أعمالهما على حيويتهما. ولما ساهم الفارابيّ من وجهة فلسفية في هذه الحركة الفكرية الهامة تنزّل في إطار عامّ نريد عرضه كي نبرز طرافته في أحسن مظاهرها. فالحركة في بداية العلوم المصطلح عليها بعلوم اللغة كانت تلقائية أكثر مما كانت متّسمة بتفكير واع. وكان النّحاة واللّغويون ينجزون عملا تطبيقيا أكثر منه نظريا ويحرصون حرصا شديدا على وضع قواعد الاستعمال أكثر من حرصهم على ابتكار علم جديد. ونلاحظ في هذا

(1) هذا مختصر البحث الذي ساهم به جاك لنقاد في الملتقى العلمي الدولي الذي نظّمته مائة المجلة بتونس من 23 الى 26 نوفمبر 1994 بمناسبة مرور ثلاثين سنة على تأسيسها وقد نشرت سنة 1995 أعمال الملتقى في 4 أعداد متوالية 36، 37، 38، 39 وتأمّل نشر هذا البحث لأسباب فنية.

النطاق الفترة التاريخية التي اقتضاها الأمر كي يأخذ مصطلح نحو مفهومه الحديث وكى تحصل صناعة المعاجم على بعض الاستقلال الذاتي وهذا إلى حد أن مصطلح «نحويون» استعمل في هذا المجال في الكتاب، ليعين المشتغلين باللغة أكثر من الذين نسميهم اليوم نحاة.

ويبين التفكير اللغوي في مجال العلوم الدينية كالفقه والكلام أيضا هذا الحرص على تطبيق أولي لم يكثر بعد بتعريف مجال البحث تعريفًا نظريًا. فالتصوص التي تناول اللغة العربية وضعت لهدف ديني يشبه ما ساد في بداية العلوم اللغوية. والتصوص الدالة على هذا كثيرة مثل كتابات ابن حزم وكتابات أبي حاتم الرازي ...

إن اهتمام أنمة اللغة سرعان ما انصب على بيان المنزلة الخاصة المتميزة للغة العربية. إذ هي لغة الوحي. وهي بذلك أفضل اللغات. وهي في نفس الوقت لغة الوحي لأنها أكمل اللغات. ومقاله الأزهرى في هذا الشأن في كتابه تهذيب اللغة يفيدنا بصورة خاصة⁽²⁾ :

ففي إطار هذه الإشكالية ستوضع قضية أصل اللغة بكل ما يترتب عن اختيار التوقيت أو الإصطلاح من نتائج وستمثل طرافة الفارابي في القطع مع هذه الإشكالية أو الأصح في معالجة قضايا اللغة في نطاق إشكالية فلسفية للتفكير في المعرفة. فهو يعيد بناء تكون اللغة من وجهة نظرية ويفسر استعمال العلامة اللغوية بالحاجة إلى التواصل. وقد تجاوز مشكل التساؤل عن أصل اللغة الذي ظهر في عصره والذي انحصر في مقابلة الطبيعة بالإصطلاح ليتساءل عن قضية التسمية. فاللغة ليست أداة تعبير وتواصل فحسب. وإنما هي أيضا أداة معرفة تعتمد في الآن نفسه الألفاظ والمدلولات.

وتتميز بذلك مقاربة الفارابي عن مقاربات معاصريه إذ لا تنزّل ضمن إشكالية دينية سيطر عليها القرآن واللغة العربية. ويتج عن ذلك

(2) الأزهرى - تهذيب اللغة - دار صادر - د.ت م م 9 - 10.

تقديم تصوّر يجعل من العربية لغة كسائر اللغات ومن العلوم الدينية علومًا كسائر العلوم. وقد وضع الفارابي من جهة أخرى فيما يتعلّق بالفاظ الفلسفة نظرية طريفة لأخذ الفلسفة عن أمة لها لغة أخرى. وحلّل مختلف الوضعيات التي من شأنها أن توجد عند ما يجب وضع اصطلاحات جديدة للتعبير عن مفاهيم جديدة.

إنّ الفارابي (870 - 950 م) رجل من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد. وهو قرن هامّ جدًّا في تاريخ الآداب والفكر العربي. فقد ظهر في الشعر والنثر والعلوم الدينية والفلسفة على السواء مفكرون أفاضل ومصنفون كبار ساهموا في ازدهار هذا العصر. فليس غريبًا أن يساهم هذا القرن مساهمة هامة في قضايا اللغة العربيّة لغة العرب. لقد وجدت حركة فكرية كاملة حول هذه القضايا. وهي حركة تنزل ضمن سنة تعود إلى أقدم عهود التراث العربي الإسلامي. وسيساهم الفارابي بدوره في هذه الحركة. ونريد في هذا السياق أن نبين بالخصوص كيف تمثّل مساهمة الفارابي عمليًا فلسفيًا طريفاً يختلف في أكثر من مظهر عن سابقه ومعاصره.

وسنعمل هذا أولاً ببيان التّواصل الموجود في التفكير اللّغوي من خلال تطوّراته منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي. وبهذا تفهّم جيّدًا القطيعة التي أحدثتها إشكالية الفارابي سواء في تساؤله عن نشأة اللغة أو في حياتها وتطوّرها.

إنّ تفكير العرب في لغتهم يعود إلى العقود الأولى من الإسلام والنصوص والأخبار الأولى حول هذا الموضوع ترجعنا إلى القرن الثاني بصورة دقيقة وإلى القرن الأول في إطار الروايات المطردة حول بداية النحو. وتحيل جميع الأخبار على أبي الأسود الدؤلي.

فالسنة كما وصلت إلى القرن الرابع قارة. ونجد ما يدل عليها من عديد الشهادات والأقوال... ولن نذكر إلّا ما قاله ابن النديم في الفهرست (65 - 71).

- قال محمد بن أسحق . زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام،⁽³⁾.

- قال أبو جعفر بن رستم الطبري . إنما سمي النحو نحواً لأن أبا الأسود الدؤلي قال لعلي عليه السلام وقد ألقى عليه شيئاً من أصول النحو . قال أبو الأسود واستأذنته أن أصنع نحو ما صنع فسمى ذلك نحواً . وقد اختلف الناس في السبب الذي دعا أبا الأسود إلى ما رسمه من النحو . فقال أبو عبيدة : أخذ النحو عن علي بن أبي طالب أبو الأسود . وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن علي كرم الله وجهه إلى أحد حتى بعث إليه زياد أن اعمل شيئاً يكون للناس أمماً ويعرف به كتاب الله . فاستغفاه من ذلك حتى سمع أبو الأسود قارناً يقرأ أن الله بريء من المشركين ورسوله بالكسر . فقال : ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا . فرجع إلى زياد . فقال : افعل ما أمر به الأمير فليغني كتاباً لقنا يفعل ما أقول،⁽⁴⁾.

فهذه السّنة مفيدة لا من الوجهة التاريخية ولكن لأنها تسمح لنا بفهم تصوّر العرب في ذلك العصر لنشأة النحو والعلوم اللّغوية . وما يعيننا هنا هو الحرص المزدوج على الرّجوع إلى القرآن والعودة إلى الأجيال الأولى من المؤمنين ممثلة في شخص علي . ويظهر الجانبان من هذه الأخبار بحسب تصويرها لأبي الأسود إما باعتباره تلميذاً لعليّ يدوّن هو نفسه تعليمه وإما باعتباره عارفاً باللّغة لا يقبل أن يضع قواعدها إلّا من أجل لحن قرآء القرآن .

الاحالة على القرآن تدلّ على أهميّة العامل الدينيّ في الدّراسات اللّغوية عند العرب وفي تصوّرهم للغة العربية . وسنرى هذا فيما بعد عند

(3) ابن النديم الفهرست . فلوجل . بيروت - ص 40 .

(4) نفسه - ص 42 .

التعرض إلى كمال اللغة العربية. أما الحاجة إلى العودة إلى أجيال الأولى من المؤمنين فهي دالة على الأهمية التي أولوها إلى الإسناد وإلى الحاجة إلى سلسلة إسناد حقيقية. تلك هي إحدى خصائص السنة الشفوية.

وتوجد سمة أخرى هامة لبدايات التفكير اللغوي تتمثل في كيفية وعي هؤلاء المفكرين الأوائل في القضايا اللغوية بذاتهم. فنحن نرى اليوم بضرب من إسقاط مقولاتنا على الماضي أن هؤلاء هم النحاة. وترجم مصطلح نحو بكلمة (grammaire) ونحوي بكلمة (grammairien). ويبدو أن ذلك تعسف في العبارة إذا ما راعينا لغة سيبويه في الكتاب. (انظر في هذا الصدد المعجم المفهرس لتروبو). والواقع أنه مضى وقت طويل قبل أن تصبح مصطلحا يدل على ما يدل عليه (grammaire) من علم. وكان النحاة مارسوا التطبيق أكثر مما وضعوا نظرية. فقد كانوا يبحثون عن وضع قواعد للاستعمال أكثر من ابتكار علم جديد. وشبهه بهذا وضع المعجمية. فالمعاجم الأولى للألفاظ وأولى دراسات المفردات ظهرت كما هو شأن الكتب الأولى ذات الصبغة النحوية خلال القرن الثاني للهجرة. وفي هذين المجالين نجد اليوم أنفسنا أمام وضعية خاصة جدا تتمثل في كتابين هامين هما كتاب سيبويه وكتاب العين للخليل وقد حجب اكتمالهما تماما المؤلفات أو المحاولات التي سبقتها. ويضاف إلى ذلك في عصر لاحق أي في القرن الرابع / العاشر بعد أن تكون علم النحو أن علم المعاجم رغم وضع مؤلفات أساسية لن يعتبر علما مستقلا بنفسه عن المعرفة اللغوية.

بل صنف العلماء فيه ضمن النحاة (انظر في هذا قول صاحب الفهرست عن الخليل).

إن التفكير في اللغة يسم أيضا علوما كالفقه والكلام. فهذان العلمان كالنحو يتسمان بطابع تطبيقي وبالحرص على الاستجابة إلى وضعيات معينة أكثر من وضع نظرية أو ابتكار علم ذي نزعة شاملة. ذلك هو شأن مختلف المدارس الفقهية التي تأسست بحسب الحاجة. وهو شأن علم الكلام

أيضا. فهذان العلمان يتصلان اتصالا متينا باللغة وذلك يبدو حتى في تسميتهما.

أما في الفقه فساكتفي بنصّين للشافعي (الرسالة - رقم 138 - 139 - ورقم 153) يبيّنان اكتمال اللغة العربية في ذاتها وبصفتها المقدّسة باعتبارها لغة الرسول. ومصطلح فقه نفسه يحيل إلى مجال اللغة بدلالته على الفهم كما هو الشأن في مصطلح فقه اللغة.

138| ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا. ولا نعلم يحيط بجميع علمه إنسان غير نبيّ. ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه. |

139| والعلوم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه. لا نعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء. |

153| . وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبيّ ولا يجوز - والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كلّ لسان تبع للسانه وكلّ أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه. (5) |

وكذلك الأمر وبصورة أوضح في علم الكلام الذي يحيل مصطلحه نفسه إلى ميدان اللغة. ونجد في مؤلّف أبي حاتم الرازي . كتاب الزينة في كلمات العربية الإسلامية، مجموعة من النصوص الهامة عن اللغة عامّة واللغة العربية خاصّة. ويقوم تفكير الرازي عموما على تأكيد تميّز العربية نظرا إلى دورها الديني المقدّس. فالعربية باعتبارها لغة النّزول الأولى ولغة كلام الله لا يمكن ألا تكون قد بلغت درجة الكمال.

(5) الشافعي - الرسالة - ص ص 42 - 43.

وكمال العربية هذا وهو ضروري لأنها لغة القرآن فلا يقتضي تبريرا دينيا فقط بل يقتضي أيضا تبريرا تقنيا : ويبين الرازي كيف أن طبيعة اللغة العربية وبنيتها تجعلان منها لغة تفوق كل اللغات الأخرى. ولأنها اللبغة الأكثر اكتمالا من الناحية الصناعية فقد اختيرت لتكون لغة الوحي الأخير. فالرازي يقول :

.وبعته بأفصح اللغات وأعطاه أتم الكلمات وأنطقه بأبين لسان ليفصل للناس ما نزل إليه بأبلغ بيان فقال عز وجل : انزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين (المجلد الأول ص 60).

ويضيف : إن أفضل اللغات الأربع لغة العرب وهي أفصح اللغات وأكملها وأتمها وأعذبها وأبينها. ولم يحرص الناس على تعلم شيء من اللغات في دهر من الدهور ولا في وقت من الأوقات كحرصهم على تعلم لغة العرب. ص 61^(*).

وهذه طريقة في النظر شائعة في التفكير اللغوي العربي. وينتج عنها أن العربية لم تعد لغة كسائر اللغات. فمنازلتها منزلة خاصة. فهي ليست مجرد أداة صناعية كجميع اللغات بل هي حقيقة في ذاتها لها قيمة خاصة بها.

ونجد مثالا عند الأزهري (895/282 - 980/370) المعاصر للفارابي وكان أصغر منه بخمس وعشرين سنة في مقدمة كتاب "تهذيب اللغة". ويمكن القول إن القرآن عنده هو البداية. ومحال أن يتصور شيء غير هذا. فهو منطلق كل معرفة وكل علم وكل تفكير. فثمة صلة وثيقة حميمة بين القرآن واللغة العربية من حيث طبيعتها ونظرا إلى أن العربية

(*) أبو حاتم الرازي. كتاب الزينة القاهرة 1957 - 1958.

لغة التزول فهي أفضل اللغات. وتتجلى هذه الأفضلية عند الأزهرى بالخصوص في غزارة الفاظها.

ويلخص الثعالبي تلخيصا حسنا نظرة اللغويين هذه في الرسالة التي قدّم بها لكتاب فقه اللغة قائلا :

- «من أحبّ الله تعالى أحبّ رسوله محمّدا صلى الله عليه وسلّم ... ومن أحبّ الرسول العربيّ أحبّ العرب. ومن أحبّ العرب أحبّ العربية التي بها أنزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ... ومن أحبّ العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وأتاه حسن سريرة فيه أعتقد أنّ محمّدا صلى الله عليه وسلّم خير الرسل والاسلام خير الملل والعرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة والإقبال على تفهّمها من الديانة إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد»⁽⁶⁾.

فاجدل حول أصل اللغة قد قام في القرن الرابع / العاشر في عهد الفارابي هل هي توقيف من الله أم هي نتيجة اصطلاح وذهب أكثر اللغويين إلى التوقيف وبعضهم الآخر إلى المزج بين الرأيين.

وكانت الاشكالية عند الفارابي وإن ظهرت في السياق الذي أشرنا إليه مختلفة تماما وتتسم بطرافة كبيرة بالنظر إلى معاصريه من اللغويين. فطرافته تتمثل في القطع مع طريقة وضع مشكل اللغة التي ميّزت معاصريه وسابقيه. فهو لا يعالج قضايا من وجهة دينية بل من وجهة فلسفية قائمة على التفكير في المعرفة كما سنرى بعد حين. فهو يتصور نظريا تكوّن اللغة ويفسّر استعمال العلامة اللغوية بالحاجة إلى التواصل. فسيتجاوز قضية التساؤل عن أصل اللغة الذي ظهر في عصره من خلال

(6) الثعالبي - فقه الله - القاهرة 1972 - ص 21.

المقابلة بين التوقيف والاصطلاح ليتساءل عن قضية التسمية. فاللغة لم تعد أداة تعبير وتواصل فحسب وإنما هي أيضا أداة معرفة عن طريق الألفاظ والمعاني. ومن ناحية أخرى فبينما كان اللغويون العرب يصدرون عن نظرة دينية يسودها القرآن والعربية فإن الفارابي يعتبر اللغة العربية لغة من بين لغات أخرى ويجعل من العلوم الدينية علوما كسائر العلوم.

ففي الفصل العشرين من كتاب الحروف حسب تقسيم مهدي يتناول الفارابي قضية «حدوث حروف الأمة وألفاظها حسب العنوان الذي رسمه محسن مهدي. فإذا بقضية نشأة اللغة توضع بعبارات راجعة إلى المعرفة. فهو يقول : «ويبين أن العوام والجمهور هم أسبق في الزمان من الخواص. والمعارف المشتركة التي هي بادئ رأي الجميع هي أسبق في الزمان من الصنائع العملية ومن المعارف التي تخص صناعة صناعة منها، وهذه جميعا هي المعارف العامة وأول ما يجدوثون ويكونون هؤلاء. (ص 134).

فكيف تنشأ هذه المعارف المشتركة ؟ يجري ذلك في مكان وبلاد معينة. ولمن يقيم بها طاقة واستعداد جسمي فسيولوجي طبيعي يؤهل الإنسان ليكتسب عددا من المعارف والتصورات والتخيلات الخاصة بقومه. (فقرة 1235/116).

(فإنهم يكونون في مسكن وبلد محدود. ويفطرون على صور وخلق في أبدانهم محدودة. وتكون أبدانهم على كيفية وأمزجة محدودة وتكون أنفسهم معدة ومسداة نحو معارف وتصورات وتخيلات بمقادير محدودة في الكمية والكيفية ...).

وليس في هذا تفسير للغة فهي ناتجة عن الحاجة إلى الإبلاغ المخصوصة بالإنسان. يقول الفارابي :

- «وإذا احتاج أن يعرف غيره ما في ضميره أو مقصوده بضميره استعمل الإشارة أولا في الدلالة على ما كان يريد من يلتمس تفهيمه إذا

كان من يلتمس تفهيمه بحيث يبصر إشارته ثم يستعمل بعد ذلك التصويت، (ص 135 - 15 - 17).

فأول تصويت هو نداء يجلب انتباه من يريد الانسان إفهامه شيئا ما. لكن سيصبح التصويت شيئا فشيئا في خدمة التواصل : فيستخدم الصوت للدلالة المباشرة على المسمى عوض الاختصار على النداء فيقابل كل مسمى يراد تعيينه صوت يقول في ذلك :

ثم من بعد ذلك يستعمل تصويّات مختلفة يدلّ بواحد واحد منها على واحد واحد ممّا يدلّ عليه بالإشارة إليه وإلى محسوساته، فيجعل لكلّ مشار إليه محدود تصويّتا ما محدودا لا يستعمل ذلك التصويت في غيره. وكلّ واحد من كلّ واحد كذلك. (116 - ص 136 . 2 - 4).

ذلك هو تفسير نشأة العلامة اللغوية التي تجمع دالا بمدلول. وبهذا قطعت خطوة كبرى تتجاوز المعرفة المحسوسة المباشرة. وتصبح العلامات شيئا فشيئا أكثر تعقيدا ويفضي ذلك أخيرا إلى تكون اللغة. ويتبع هذا التكون مبدأ السهولة أو الملاءمة : ويقول الفارابي في ذلك :

(فقرة 118 ص 136 - 14 وص 137، 2).

- وظاهر أن اللسان إنما يتحرّك أولا إلى الجزء الذي حركته إليه أسهل. فالذين هم في مسكن واحد وعلى خلق في أعضائهم متقاربة، تكون ألسنتهم مبطورة على أن تكون أنواع حركاتها إلى أجزاء (أجزاء) من داخل الفم أنواعا واحدة بأعيانها، وتكون تلك أسهل عليها من حركاتها إلى أجزاء أجزاء (آخر). ويكون أهل مسكن وبلد آخر، إذا كانت أعضاؤهم على خلق وأمزجة مخالفة لخلق أعضاء أولئك، مبطورين على أن تكون حركة ألسنتهم إلى أجزاء أجزاء من داخل الفم أسهل عليهم من حركاتها إلى الأجزاء التي كانت السنة أهل المسكن الآخر (تتحرك)

إليها، فتخالف حينئذ التصويتات التي يجعلونها علامات يدلّ بها بعضهم بعضا على ما في ضميره بما كان يُشير إليه وإلى محسوسه أولاً. ويكون ذلك هو السبب الأول في اختلاف ألسنة الأمم. فإنّ تلك التصويتات الأولى هي الحروف المعجمة.. (118، 136، 141 - 137، 2).

فاستعمال مبدأ السهولة يضع اللغة في ميدان العالم الواقعي بعيدا عن كلّ مرجعية أخروية. ونلاحظ أن اختلاف اللغات لم يعد ينظر إليه في سياق عقائدي أو ديني وإنما في إطار عملي لا غير، وهو ناتج عن أسباب فيزيولوجية.

ويواصل الفارابي آراءه بعرض النظام الذي يتصوره للاشتراك والتسمية. ويلاحظ أن اللفظ الواحد في بعض الحالات يدلّ على أشياء مختلفة وأن ألفاظ العلم ذات دلالات تختلف عن ألفاظ الحياة العادية. فكان على كلّ علم أن يجد ألفاظا لتأدية المعاني الخاصة به وتقيم عملية التسمية علاقة بين اللفظ والمعنى وبين نظام من الألفاظ ونظام من المعاني وهكذا ينحصر تساؤل الفارابي في نشأة اللغات المنطلقة من الأصوات إلى الحروف والوحدات المعجمية.

إنّ الفارابي يتجاوز التساؤل الذي قام في عصره عن أصل اللغة والقائم على التقابل بين الطبيعة والأصطلاح. فهو يتوخّى موقفا دقيقا يقوم في الوقت ذاته على تواضع المتكلمين وتدخل منشئ للغة. فهو بعدم اكتفائه بالتساؤل عن أصل اللغة لا يمكنه أن يجتنب التقابل بين طرفين وبوضع القضية في نطاق المعرفة والتواصل تجنّب هذا التقابل. فليست اللغة أداة تعبير وتواصل فحسب وإنما هي أيضا أداة للمعرفة.

إنّ مقاربة الفارابي تميّز عن طريقة معاصريه من جهة أنها لا تقع في نطاق إشكالية دينية يسيطر عليها القرآن واللغة العربية فبفضل تفسيره نشأة اللغات وتنوعها بأسباب فيزيولوجية اعتبر أن كل اللغات متساوية

وأن ما بينها من فروق لا تحيل إلى أسباب ميتافيزيقية أو دينية ولكن إلى أسباب عملية، ومن هنا لا مبرر إلى اعتبار العربية لغة على حدة بل هي تصبح على عكس ذلك لغة بين بقية اللغات.

وسنجد هذا الاختلاف بين الفارابي والموقف التقليدي لسابقه ومعاصره وهو موقف اللغويين اللاحقين أيضا عندما نطالع نصا مشهورا من كتاب المزهري حيث يستشهد السيوطي بمختلف المؤلفين وبالأخص بنص للفارابي ليبين أن العربية الأصفى والأفصح هي لغة الرسول. وهو من قريش. وهذا يعني أن متكلمي العربية الفصحاء هم من هذه القبيلة. فبعد ذكر مختلف الشواهد يذكر نص الفارابي. ونقدم الجزء الذي يقول إنه اقتبس عن فيلسوفنا في كاب الألفاظ والحروف :

«وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى «بالألفاظ والحروف» : كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إيانة عما في النفس؛ والذي عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي، وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس، وتميم، وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم أكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف؛ ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم.

وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري من كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسانر الأمم الذين حولهم؛ فإنه لم يؤخذ لا من لحم، ولا من جذام؛ لمجاورتهم أهل مصر والقيبط؛ ولا من قضاة، وغسان، وإياد؛ لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية؛ ولا من تغلب واليمن؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان؛ ولا من بكر لمجاورتهم للقيبط والفرس؛ ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس؛ ولا من أهم اليمن لمخالطتهم

للهند والحبشة؛ ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم؛ ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علما وصناعتهم. أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب. (ص 10 - 11) (المزهر 1. 211، 12. 212، 13).

ذلك هو الموقف الكلاسيكي للنحاة الذين سبقوا السيوطي وبالأخص النحاة المعاصرين للفارابي. فتأكيد أفضلية قريش له منزلة مخصوصة في هذا الوصف. لكن نصه الفارابي كما جاء في كتاب الحروف يختلف في نقاط هامة بالرغم من التشابه الظاهر مع النص الذي أورده السيوطي.

- وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء. فإن فيهم سكان البراري وفيهم سكان الأمصار. وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين. وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق. فتعلموا لغتهم والفصح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر، ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم ومن أشدهم توحشا وجفاء وأبعدهم إدعانا وانقيادا، وهم قيس وتميم وأسد وطّي هذيل، فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب. والباقون فلم يؤخذ عنهم شيء لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر.. (ص 80 - الحروف - فقرة 135 - ص 147).

فأوجه الالتلاف كافية بين النصين للذهاب إلى أن النص الأول هو حقا للفارابي كما أشرنا إليه وأنه تغير تدريجيا أثناء نقله عبر الأجيال.

فالنصّان يؤكدان أهمية قبائل البراري المقيمة في أواسط البلاد الأبعد عن الاتصال بغيرها من البلدان. ويؤكد كلاهما على المدينتين البصرة والكوفة. إلا أنّ الذي يلفت الانتباه في نصّ الفارابي هو أنّ الوجهة الدينية التي تبرز دور قريش الخاص والأساسي لم يصدر في أي حال من الأحوال عن نصّه. بل بالعكس. فغياب ذكر قريش يفهم منه أنّه واعي بأن هذه القبيلة نظرا إلى دورها كملتقي للتجارة ومركز للحج كانت أبعد من أن تكون في حمى من التأثير بلغات أخرى ومن دون أن يعمل على تمييز قبيلة عن أخرى فإنّ الفارابي يرى أن أفصح لغات العربية صادرة عن القبائل المقيمة في وسط الجزيرة العربية. وهو بعدم الإشارة المتميزة إلى قريش يقف موقف من لا يرى أن العربية لغة على حدة بالنظر إلى إحالتها على القرآن ونبيّ مكّة. وإنّما هي لغة كسائر اللغات. ومن دون إنكار خصوصية العربية عمدة الفارابي إلى ضرب من عقلنة اللغويات العربية. وإذا كان السيوطي يرى أنّ الأمر كله يتعلّق برجل واحد هو محمّد وبقبيلة واحد هي قريش ولا يحيل بالمرّة إلى التجذّر التاريخي فإنّ الفارابي يهتمّ بتحديد الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما اللغة العربية. وذلك بين سنة 90 و200 كما يقول وباعتبار مساهمة المدينتين وعلاقتهما بوسط الجزيرة العربية فهو ممثّل لقراءة تاريخية أساسا تختلف عن القراءة الكلامية والدينية.

ويوجد جانب آخر نريد من خلاله بيان طرافة الفارابي في أفكاره اللغوية. وهو ما قدّمه عن أخذ أمة من الأمم الفلسفة. فالمقصود بهذا أمة ترغب في امتلاك فلسفة قد تمّ تكونها. فالهامّ في مقاربة الفارابي أنّه يهتمّ في هذا الصدد بنشأة الاصطلاحات الفلسفية التي تسمح بالأخذ بناصيتها. وهذه النشأة تعود بنا إلى تكوين الأمة الأولى للاصطلاحات الفلسفية والمفاهيم التي مارستها في معالجتها. فهو يقول في كتاب الحروف : «فإن كانت الفلسفة قد انتقلت إليهم من أمة أخرى فإنّ على

أهلها أن ينظروا إلى الألفاظ التي كانت الأمة الأولى تعبّر بها عن معاني الفلسفة ويعرفوا عن أي معنى من المعاني المشتركة معرفتها عند الأمتين هي منقولة عن الأمة الأولى..

(الحروف / فقرة 155 / ص 157 / 19 - 158 / 2).

فالفكرة الأساسية أن الأمة الأولى ركنت إلى المفاهيم العامة المؤهلة أكثر من غيرها للتعبير عن المعاني الفلسفية. وبهذا كونت لغتها الفلسفية. ويفترض هذا أن يُوجد تطابق بين الحقول الدلالية للغتين. ويحلل الفارابي الامكانيات المختلفة. الأولى هي التي يكون للأمة الثانية نفس المفاهيم العامة التي تستعملها الأمة الأولى : فهو يقول : « فإذا عرفوها أخذوا من ألفاظ أمتهم الألفاظ التي كانوا يعبرون بها عن تلك المعاني العامية بأعيانها فيجعلوها أسماء تلك المعاني من معاني الفلسفة.. »

(الحروف / فقرة 155 ص 158 / 1 - 2 / 3)

وأما في الحالة الثانية فالمفاهيم العامة التي تستعملها الأمة الأولى غير معروفة عند الأمة الثانية ويجب عندئذ اللجوء إلى المشابهة. ويقول : « فإن وجدت فيها معانٍ نقلت إليها الأمة الأولى أسماء معانٍ عامة عندهم غير معلومة عند الأمة الثانية وليست لها عندهم لذلك أسماء وكانت تلك المعاني بأعيانها تشبه معاني أخرى عامة معلومة عند الثانية ولها عندهم ألفاظ فالأفضل أن يطرّحوا أسماءها وينظروا إلى أقرب الأشياء شَبهاً بها من المعاني العامة عندهم فيأخذوا ألفاظها ويسموا بها تلك المعاني الفلسفية.. »

(الحروف / فقرة 155 - ص 158 . 1 - 4 - 8)

وأما الحالة الثالثة فهي أقرب إلى الثانية من جهة أن التشابه بينهما يحدث مع مفاهيم أخرى. ويقول :

- . وإن وجدت فيها معان سميت عند الأولى بأسماء أقرب الأشياء العامة شيها بها عندهم وعلى حسب تخيلهم الأشياء وكانت تلك المعاني الفلسفية أقرب شيها عند الأمة الثانية على حسب تخيلهم الأشياء وكانت تلك المعاني الفلسفية أقرب شيها عند الأمة الثانية على حسب تخيلهم للأشياء بمعان عامة أخرى غير تلك فينبغي أن لا تسمى عند الأمة الثانية بأسمائها عند الأمة الأولى ولا يتكلم بها عند الأمة الثانية، (الحروف. فقرة 155 - ص 158، 128).

وتقوم الحالة الرابعة كذلك على المشابهة. فهو يقول «وإن اتفق أن كان معنى فلسفي يشبه معنيين من المعاني العامة ولكل واحد منهما اسم عند الأمتين وكان أقرب شيها بأحدهما وكانت تسميتها له باسم الذي هو أقرب شيها به فينبغي أن يسمى ذلك باسم هو أقرب شيها به..»
(الحروف / فقرة 155. 1 - 18 - 21).

أما الحالة الخامسة والأخيرة فهي التي لا تجد فيها الأمة الثانية أي مفهوم عام أو أي اسم بواسطته يمكن استعمال مبدأ المشابهة. وهذا قليل جداً فينبغي كما فعلت الأمة الأولى اختراع أسماء أو نقل الألفاظ الأجنبية. ويقول في هذا هذا :

- . فإن كانت فيها معاني لا توجد عند الأمة الثانية معان عامة تشبهها أصلاً - على أن هذا لا يكاد يوجد - فإما أن تختار لها ألفاظ من حروفهم وإما أن يشرك بينها وبين معان آخر - كيف اتفقت في العبارة. وإما أن يعتبر بها. بألفاظ الأمة الأولى بعد أن تغير تغييرا يسهل به على الأمة الثانية النطق بها ويكون هذا المعنى غريباً جداً عند الأمة الثانية إذ لم يكن عندهم لا هو ولا شبهه..

(الحروف / فقرة 155 - ص 158 - 124 - 17).

إن طرافة الفارابي في هذا العرض تكمن في أنه تصوّر طريقة نشأة اللغة تنزلها في ميدان الفعل الإنساني أي في المجال الديويّ العارض بخلاف إشكالية الكثير من معاصريه الذين نظروا إلى اللغة العربية من جهة علوية دينية.

تلك حسب ما يبدو لنا أهمية تصوّر الفارابي للغة على نحو صريح أو ضمني فهو يتوخى وجهة نظر ترفض تفضيل لغة على أخرى ويبقى في ميدان النشاط الإنساني والواقع. إلا أنّ ذلك لم يمنعه من أن يكون مفكراً عربياً ومسلماً كبيراً.

جاك لنقاد

